اللُّغة العربية بين

اللّحن والتطور العام

بقلم الأستاذ الدكتور

إقبال عبد العزيز منوفلي حمد

أستاذ مساعد

كلية الآداب والإدارة - جامعة بيشة

المملكة العربية السعودية

بسم الله الرحمن الرحيم

مستخلص :

كل لغة إنسانية لها خصائص ذاتية تميّزها عن غيرها من اللُّغات ، حتى تلك التي تشاركها الفصيلة فينفسها ، وهذه الخصائص تحفظ للُّغة كيانها وشخصيتها في المجتمع الذي يعيش فيه المتحدثون بتلك اللُّغة وبين نظيراتها من اللُّغات ؛ لكن وبما أنّ اللُّغة ظاهرة اجتماعية فإنّها قابلة للتأثير والتأثر حسب حركة المجتمع الذي تعيش وتنتشر فيه .

هذا ولغتنا العربية ليست بدعاً من تلك اللُّغات ،فهي لغة حية مرنة أتيحت لها فرصة الانتشار الواسع والاحتكاك بغيرها، بحكم ارتباطها بالقرآن الكريم ، وبحكم موقع البلاد العربية ومجاوراتها للكثير من الأمم غير العربية، وهذا الانتشار قطعاً قد أفاد العربية كثيراً ، فقد تطورت تطوراً ملحوظاً في شتى نواحيها ،وقويت مقوماتها ، وكمل ما كان بها من نقص، إذ انتقل إليها الكثير من المفردات والصيغ ؛ فنتج عن ذلك غزارة مفرداتها، وكثرة مترادفاتها، وقدرتها الفائقة على التعبير في مختلف فنون القول . وهذا التطور الكبير للعربية يظهر لنا بوضوح من عدة وجوه ، أبرزها:

١ـ احتكاكها بلغات الأمم المجاورة لها كالآرامية والفارسية واستفادتها الكبيرة من ذلك .

٢ـ تمددها في نطاقها العربي وتشعبها إلى العديد من اللهجات ذات الخصائص المتنوعة وما لذلك من دلالات إيجابية في حق أي لغة

٣ـ الأثر الذي أحدثه القرآن الكريم والحديث النبوي في هذه اللُّغة والارتقاء الكبير الذي طرأ على مختلف مستوياتها.

في مقابل هذا التطور الإيجابي وبحكم ازدياد أعداد المتكلمين بها فقد بدأت هذه اللُّغة ومنذ زمن بعيد تعاني من انحراف ألسنة المتكلمين بها

عن جادة طرق الفصاحة والسلامة اللُّغوية، إذ ازداد انتشار اللّحن على مر العصور حتى وصل إلى صورة مخيفة ومزعجة في عصرنا هذا ، الأمر الذي يمثل اليوم مصدر قلق للكثير من أهل الاختصاص، ولكن ما زالت الأيدي مغلولة وخطى الإصلاح متعثرة ، والأمر لا يحتمل في هذا العصر الذي تنشط فيه محاربة الإسلام من خلال هذه اللُّغة. هذا ونظراً لأهمية هذا الأمر وخطورته وكثرة التحديات التي تواجه العربية اليوم اخترت البحث تحت عنوان :

" اللُّغة العربية بين اللّحن والتطور العام "

وقد خرجت الدراسة بالعديد من النتائج .

Abstract :

. Every human language has its own features make it different from other languages. These features maintain preserve the entity of language in community which the speakers of this live among other language speakers. However, language is the social phenomenon, but, its capable affecting according to the movement of the community that it spread. Our Arabic language is not different those languages. It's flexible and live language has been given a chance to spread widely and exposed to others as the result of its connection to the Holly Quran and location of Arabic countries that neighboring many nations. This spread of Arabic language absolutely beneficial in deferent fields, make it strong due to entering many words and phrases from other languages, that make it's lexical and synonyms very rich. The large development of Arabic language become obvious in various faces, the most clear it's exposed to neighboring languages such as, Persian and Armenian languages. Also, it's expansion in Arabic areas and divided into many dialects with their various features and positive connotations due to effects of Quran and Hadeeth. This positive development lead to increase the numbers of speakers, even though, from long time it suffers with deviation of its speakers become fearful, that make specialists more anxious. As the result of importance of this matter and the various challenges which face Arabic language today, the researcher selected the title: " Arabic Language between tune and general development". The study come out with various results.

المقدمة

إنّ الإنسان الذي اختاره الله واختاره ليكون خليفته في هذه الأرض لابد أن يكون له من القدرات والخصائص والمؤهلات ما يعينه على معرفة خصائص الأشياء والاستفادة منها ،وتسخيرها فيتحقق الهدف الذي من أجله خلق. وتأتي في مقدمة هذه الأشياء اللُّغة التي ميّز الله بها الإنسان دون غيره من المخلوقات. فالإنسان قد وُهب القدرة العقلية والاستعداد الفطري الذي مكنّه من النطق وارتقى بلغته لتصبح لغة مفهومة ذات قواعد وأصول .واللُّغة كائن حي يتفاعل مع الظروف التي تحيط به ،فهي تخضع لظواهر تقودها للتطور والتغير؛ لذا فهي في حالة تغير مستمر على المستوى الصوتي والنحوي والصرفي والدلالي ،ويعد هذا التغير أمراً طبعياً يحدث لأيّ لغة حية، خاصة إذا أُتيح لها الانتشار في رقعة جغرافية واسعة؛ إلا أنّ انتشار اللُّغة في مناطق واسعة وازدياد عدد المتكلمين بها يعّرضها للانحراف عن مسارها السليم من حيث الفصاحة والالتزام بالأساليب والقواعد التي تضمن سلامتها. فاللُّغة العربية اختارها الله لتكون لغة القرآن الذي أُنزل للناس كآفةً عرباً وعجماً ؛مما ساعد على انتشارها وسعة تداولها على الألسنة ، الأمر الذي جعلها لغة مواكبة متجددة تتماشى مع سنن التطور الطبعي لأيّ لغة حية ؛ إلا أنّ هذا الانتشار الواسع قد ساعد على تفشي اللّحن اللُّغوي بجميع أنواعه في هذه اللُّغة خاصة في عصرنا الحاضر، الأمر الذي يحتم علينا أن نميز بين تطور هذه اللُّغة بوصفها من أكثر اللُّغات مرونةً وتفاعلاً مع غيرها، وبين الانحراف والخطأ اللُّغوي الذي يتطلب المعالجة حرصاً على كتاب الله من التحريف ، وعلى سلامة وفصاحة هذه اللُّغة الخالدة .

أسباب اختيار الموضوع :

١ــ تفشي اللّحن واستفحال أمره في عصرنا الحاضر .
٢ــ الخلط وعدم التمييز بينما هو تطور لغوي ، خاصة في جانب اللّهجات وما هو لحن ؛ مما يزيد فرص انتشار اللّحن وصعوبة محاربته .
٣ـ كثرة وتزايد التحديات التي تواجه اللُّغة العربية اليوم .

أهداف الدراسة :

١ــ الوقوف من خلال هذه الدراسة على تطور اللُّغة العربية ومظاهره.
٢ــ استشعار حجم الخطر الذي يحيط بلغتنا العربية اليوم، جراء تفشي اللّحن بشكلٍ مزعج .
٣ــ الوقوف على الجهود العظيمة التي بذلها السلف من علماء العربية في خدمة هذه اللُّغة والمحافظة عليها من كل تحريف أو عبث .

أهمية الدراسة :

تنبع من ارتباطها باللُّغة العربية متنزل القرآن الكريم ، ومن أنّها تعكس مدي رقيّ هذه اللُّغة ومدى مرونتها وتفاعلها مع غيرها ، فضلاً عن أنّها توقفنا على الخطر الكبير الذي يحدق بالعربية بسبب تفشي اللّحن واستشرائه.

حدود الدراسة :

تتبع مظاهر التطور في اللُّغة العربية وتبيين الخط الفاصل بينه وبين الخطأ والانحراف اللُّغوي .

منهج الدراسة :

اتبعت الدراسة منهجاً وصفياً.

محاور الدراسة:

المحور الأول :التطور اللُّغوي العام أسبابه ومظاهره .

المحور الثاني :مظاهر تطور اللُّغة العربية .

المحور الثالث :اللّحن اللُّغوي وأثره على اللُّغة العربية .

المحور الأول: التطور اللُّغوي العام أسبابه ومظاهره

إنّ اللُّغة ظاهرة اجتماعية تخلقها طبيعة الاجتماع بين البشر، تنشأ كما ينشأ غيرها من الظواهر الاجتماعية الأخرى، فلولا اجتماع الأفراد ببعضهم وحاجتهم إلى التعاون والتفاهم فيما بينهم وتبادل الأفكار والتعبير عما يدور بالخواطر ما وجدت لغة ولا وجد تعبير إرادي .فاللُّغة في حقيقتها هي حركة المجتمع ، وهي حركة مرتبطة بمعايير زمانية ومكانية كما أنّها تقوم على تفاعل العناصر اللُّغوية، فهي نشاط يعيش فيه الماضي البعيد والقريب ،وأنّه يبدي المستقبل المنظور ، فإذا كانت حياة الأقدمين تنتهي بانتهاء آجالهم فإنّ آثارهم المكتوبة تظل باقية.[1] واللُّغة دائمة التطور مهما أحيطت بسياج من الحرص عليها والمحافظة على خصائصها ؛ لأنّ اللُّغة في حقيقتها عبارة عن عادات صوتية تؤديها عضلات خاصة تختلف في درجة أدائها من فردٍ لآخر من أبناء اللُّغة الواحدة. وهو ما يعرف بالمغايرة الفردية ،فقد أجمع علماء اللُّغة علي أنّ المجتمع الذي يتكلم أفراده لغة واحدة لا وجود له. والمغايرة الفردية هي طبيعة عفوية تترك آثاراً تنعكس لدى الأشخاص، من خلال تركيب العبارات وانتقاء المفردات، وكذلك التباين في اللفظ ، والشدة واللين ، والنبر والنغم؛ فمما لاشك فيه أنّ اللسان العربي اليوم غير اللسان العربي في العهد البعيد؛ بل إنّ التجارب الدقيقة أثبتت أنّه لا يكاد يوجد شخصان ينطقان نطقاً متماثلاً تمام التماثل، فلابد أن تلحظ الأذن المدربة بعض الفروق الصوتية الدقيقة لذلك. فهذه المغايرة واختلاف النطق من فرد لآخر ومن مجتمع لآخر، يؤديان تلقائياً لوجود لهجات مختلفة في إطار اللُّغة الواحدة.[2] وقد أكد

---

(١)د/عبد الصبور شاهين ، في التطور اللُّغوي ، القاهرة : دار الرسالة ، ط٢ ، ١٩٨٥، ص٥

(٢)ـ د/إبراهيم أنيس ، الأصوات اللُّغوية ، القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، ط٣ ، ٢٠٠٧م ، ص٢٠

العلماء المعاصرون أنّه لا يوجد بين أبناء اللُّغة الواحدة اثنان ينطقان نطقاً واحداً متماثلاً في كل الصفات ؛ مما يجعل لغة الخلف تختلف عن لغة السلف في بعض نواحيها .[١]

واللُّغة تتطور على ألسنة المتكلمين بها، فتختلف بين جيل وجيل وإنّ القديم منها قد يلبس ثوباً جديداً ، والجديد سرعان ما يصبح خلَقاً ، فلا يبقى منه إلا ما يصلح رقعاً للثوب الذي يليه .ونتيجة لهذا التطور تختلف لغة العصر والعصر الذي يسبقه وبعد فترة يصبح قديماً ما كان جديداً بالأمس فيتصارع مع جديدٍ آخر ، فتضمحل لغة العصر الأسبق أو تندثر ؛ إلا أنّكل جديد لا يظهر فجأة ولا يقضي على القديم بين يوم وليلة ؛ بل يظل الصراع قائماً بينهما لفترة من الزمن ويكون الانتصار في آخر الأمر للشكل الجديد ، وهذه سنة الحياة مع جميع اللُّغات ،ولا تُعرف لغة على ظهر الأرض جمدت على شكلٍ واحد مئات السنين. وليس في مقدور الأفراد أن يوقفوا تطور أيّ لغة أو أن يجعلوها تجمد على وضعٍ خاص؛ مهما أجادوا في وضع معجماتها وتحديد ألفاظها ومدلولاتها وضبط قواعدها وأصواتها، ومهما اجتهدوا في إتقان تعليمها للأطفال قراءةً وكتابةً ونطقاً، ومهما بذلوا في محاربة ما يصيبها من لحن أو تحريف ، إذ أنّها لا تلبس أن تنفلت من هذه القيود وتسير وفق ما تريده لها سنن التطور والارتقاء الطبعي .[٢]

هذا وتجدر الإشارة هنا اللُّغة تتوزع في مجموعة من الأنظمة التي تبدأ بالنظام الصوتي بصوامته وصوائته، وتمر بالكلمات من حيث بنائها ودلالتها على المعاني المختلفة ، وتنتهي ببناء الجملة ووظيفة الكلمات داخل الجملة وعلاقتها ببعضها البعض ؛إلا أنّ عناصر اللُّغة ليست كلها على سواء في سرعة قبول التطور ، إذ أنّ هناك فرقاً في تطور اللُّغة بين الصوتيات والصرف والمفردات ، فالنظامان الصوتي والصرفي إذا ما اكتسبا مرةً بقيا طول العمر ؛ لأنّ استقرارهما يرتبط باستقرار ذهنية المتكلم ، أما

---

(١)ـ د/ علي عبد الواحد وافي ، علم اللُّغة ، شركة نهضة مصر، ط١٥، ٢٠١٣م،ص١١٠ ، ود/ إبراهيم أنيس ، السابق ، ص٢١٣

(٢)د/ رمضان عبد التواب ،فصول في فقه العربية ،الدمام: مكتبة المتنبي ، ط١٤٣٣هـ ص ٣٧٣ ،ود/ عبد الصبور شاهين ، في التطور اللُّغوي ، ص ٦٢ـ د/ رمضان عبدالتواب ، التطور اللُّغوي مظاهره وعلله وقوانينه ،القاهرة : مكتبة الخانجي ، ط٢ ١٩٩٠م ، ص ١٥ ، ص١٨

المفردات فإنّها على العكس من ذلك لا تستقر على حال لأنّها تخضع لظروف المتكلمين وتأثرهم بمن يحيط بهم .[١] والقاعدة المقررة عند العلماء أنّه يستحيل على أي مجموعة بشرية تعيش في مساحة جغرافية واسعة أن تصطنع لنفسها في حديثها اليومي لغة موحدة ، تخلو من اختلاف صوتي أو دلالي أو اختلاف في جانب البنية أو التراكيب .[٢]

كما انّ التطور اللُّغوي لا يحدث على نحو مشتت غير مطرّد ؛ بل يحدث وفقاً لقواعد ثابتة يمكن أن تصاغ في صورة قوانين دقيقة .[٣] وتطور اللُّغات بصفةٍ عامة له مسبباته ومظاهره المتعددة ، واللغات في تطورها العام تتأثر بعوامل كثيرة أهمها :

١ـ **الصراع اللُّغوي** :متى أُتيح للغتين متجاورتين فرص الاحتكاك فلابد من أن تتأثر كل منهما بالأخرى من حيث المفردات والقواعد والأساليب .فاللُّغات يحدث بينها ما يحدث بين جماعات الكائنات الحية من احتكاك وصراع من أجل البقاء والسيطرة ، وهذا الصراع ينشأ إما نتيجة لنزوح عناصر ذات لغةٍ أجنبية إلي بلدٍ ما ، أو نتيجة تجاور شعبين مختلفي اللُّغة يتاح لأفرادهما فرص الاحتكاك المادي والثقافي. فتختلف النتائج المترتبة على الصراع اللُّغوي ، فتارةً ترجح كفة أحد المتنازعين فيسارع في القضاء على الآخر ، وتارةً ترجح كفة أحدهما ولكنّه يهمل الآخر وينتقص من قوته بالتدريج حتى تنكسر شوكته تماماً، ثالثة تتكافا قواهما ويظل كل منهما محتفظاً بشخصيته ومميزاته أثناء تلك الحرب .[٤]

٣ـ جوزيف فندريس ، اللُّغة ، ترجمة عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص ، القاهرة مكتبة الأنجلو ، ط١٩٥٠م ، ص٢٤٧

٤ـ د/ رمضان عبد التواب ،التطور اللُّغوي ، ص٣٧٣ ـ ٣٧٤

(٤)ـ د/ علي وافي ، علم اللُّغة ، ص ٢٢٩ ،٢٤٦

٢ـ **انتقال اللُّغة من السلف إلى الخلف** : تختلف لغة الخلف في كل أمة عن لغة السلف في كثير من المظاهر خاصة المظاهر الصوتية ، ويرجع ذلك إلى أمور عامة يشترك فيها جميع أفراد الطبقة الواحدة ويمتازون بها عن أفراد الطبقة السابقة لهم ، كالتطور الطبعي لأعضاء النطق في الفصيلة الإنسانية ،والتطور الطبعي للظواهر النفسية الذي ينعكس صداه على اللُّغة ،وكذلك الأخطاء التي تنتشر بين الصغار في طبقة ما، والتي لا يفطن لها الكبار لدقتها وخفائها أو يهملون إصلاحها.

ومن ذلك أيضاً استخدام الكبار في جيلٍ مّا لبعض المفردات في غير موضعها على سبيل التوسع أو المجاز ، ويلحق بذلك أيضاً النظم والتقاليد التي يسير عليها جيل مّا في تلقين الأطفال اللُّغة ، أو تعليمهم إياها في المدارس .فالفروق اللُّغوية الناشئة عن هذه العوامل يشترك فيها جميع أفراد الطبقة الواحدة ؛ مما يجعل لغتهم تختلف عن لغة الطبقة السابقة لهم[١].

٣ـ **تأثر اللُّغة بلغات أخرى:** يستحيل أن تَسْلَم لغة مّا من عوامل التطوير والتغيير، فاللُّغات الحية يستفيد بعضها من بعض ،ولا يمكن للغةٍ تنكمش على نفسها وتنقطع صلاتها باللُّغات والمدنيات الأخرى أن تبقى على قيد الحياة طويلاً ؛ ولكي تستمر اللُّغة في الوجود يجب أن تقبل التطوير، ولكي تزداد نمواً وازدهاراً يجب أن تتصل بلغات الأمم الأخرى وتستفيد منها. [٢]وتأثر اللُّغات يمكن أن يتم بعدة طرق ،كأنْ تتوثق العلاقات الثقافية بين شعبين مختلفي اللُّغة ، فإنّ ذلك ينقل إلى لغة كل منهما؛

---

(١)ـنفسه ، ص ٢٥٠ـ ٢٥١

(٢)ـ عبد العزيز بن عبد الفتاح الملاّ ، دراسات في أصول اللُّغات العربية ،المدينة المنورة : الجامعة الإسلامية ، ط١٩٧٤م ، ص١٣٣

خاصةً لغة الكتابة آثاراً كثيرة من الأخرى. أو كأنْ تتوثق العلاقات التجارية بين شعبين مختلفي اللُّغة، فمنتجات كل شعب تحمل معها أسماءها فما تلبس أن تمتزج بمتن اللُّغة ، وكلما ازداد الاحتكاك التجاري بين الشعبين كلما ازداد انتقال الآثار اللُّغوية إلى اللُّغة الأخرى.(١)والتطور اللُّغوي تزداد سرعته بازدياد انتشار اللُّغة بين غير أهلها، وبازدياد عدد الذين يتكلمونها ومدى تنوعهم ، إذ أنّ انتشارها في أقاليم تحتك فيها بلغات أخرى يعرّضها لأن تفقد خصائصها الموغلة في الذاتية ، والتأثير الذي يقع عليها من الخارج يؤدي بها إلى التغير السريع .(٢)

٤ـ **عوامل اجتماعية ونفسية وجغرافية** : تتأثر اللُّغة بحضارة الأمة ونظمها وتقاليدها ودرجة ثقافتها وبيئتها الجغرافية وشؤونها الاجتماعية ، فكلما اتسعت حضارة أمة وارتقى تفكيرها وتهذبت اتجاهاتها النفسية نهضت لغتها ودقت معاني مفرداتها القديمة ودخلت فيها مفردات أخرى عن طريق الوضع ، والاشتقاق ، والاقتباس، للتعبير عن الأفكار والمسميات الجديدة، فانتقال الأمة من البداوة إلى الحضارة يهذّب لغتها ويسمو بأساليبها، ويزيل ما بها من خشونة ويكسبها مرونة في التعبير والدلالة . وخصائص الأقاليم الطبيعية تنعكس في لغة سكانها أيضاً ، ومن أجل ذلك نجد فروقاً كبيرة بين لغة كل من سكان المناطق الجبلية وسكان الصحراء وسكان الأودية، ويظهر ذلك في الفروق غير اليسيرة التي تنشأ بين لغات الفصيلة الواحدة؛ بل بين لهجات اللُّغة الواحدة . اللُّغة تتأثر كذلك بالنواحي الاجتماعية العامة للأمة ، فالعقائد والتقاليد وما تخضع له من مبادئ في نواحي السياسة

---

(١)ـ عبد العزيز بن عبد الفتاح الملاّ ، دراسات في أصول اللُّغات العربية ، ص٢٤٨
(٢)ـ فندريس ، اللُّغة ، ص ٢٤٧

والتشريع والقضاء والأخلاق والتربية ، كل ذلك يصبغ اللُّغة بصبغة خاصة في جميع مظاهرها .[١] .

٥ـ **عوامل أدبية** :تتمثل فيما تنتجه قرائح الناطقين باللُّغة من علماء وأدباء وكتّاب وغيرهم، وفي ما تبذله الهيئات من جهود مقصودة في حفظ اللُّغة وتعليمها وتوسيع نطاقها، وتكملة نقصها ،وتهذيبها من حيث المفردات والقواعد والأساليب، وتدوين آثارها، واستخدامها في الترجمة والتأليف العلمي، كالدور الذي تقوم به معاهد التعليم في حفظ اللُّغة وسلامتها وتخليدها ،فهي التي تعلم الصغار اللُّغة وتقوّم ألسنتهم وتصلح النطق الفاسد لديهم وتعرّفهم بآداب اللُّغة وأساليبها وتمكّنهم من استخدامها في مختلف نواحي التعبير.[٢]

٦ ـ **السهولة والتيسير** : تميل اللُّغة في تطورها نحو السهولة والتيسير ، فتحاول التخلص من الأصوات العسيرة باستبدالها بأصوات أخرى لا تتطلب مجهوداً عضلياً كبيراً ، كما أنّها تحاول أن تتفادى التفريعات المعقدة والأنظمة المختلفة للظاهرة الواحدة ، وهذا يوافق طبيعة الإنسان الذي يحاول عادة الوصول إلى غرضه من أقصر الطرق ، وهذا الأمر أكثر ما ينطبق على التطورات الصوتية في اللُّغة ، وهذا التطور غير إرادي يحدث دون أن يشعر به المتكلم ، كما أنّها عملية بطيئة لا يظهر أثرها إلا بعد أن تمر بأطوار؛ أي أنّأثرها يظهر واضحاً بعد أجيال .[٣]

---

(١)ـ د/ إبراهيم أنيس ، الأصوات اللُّغوية ، ص ١٨٧ ـ ١٨٨ ود/ علي وافي ، علم اللُّغة ، ص ٢٥٧ ـ ٢٥٨

(٢)ـد/ علي وافي ، المرجع نفسه ، ص٢٦٨ ، ٢٨٤

(٣)ـ د/ رمضان عبد التواب ، التطور اللُّغوي ، ص٧٦، ود/ إبراهيم أنيس ، الأصوات اللُّغوية ، ص ٢١٧ ، ٢١٨

٧ـ **شيوع الأصوات** : الأصوات التي يشيع تداولها في الاستعمال تكون عرضة للتطور أكثر من غيرها ، فالصوت إذا شاع استعماله في الكلام كان عرضة لظواهر لغوية كالإبدال والإدغام ، وأحياناً يتعرض الصوت الكثير الشيوع للسقوط من الكلام .[١]

٨ـ **العامل الحضاري** : انتشار الصيغ اللُّغوية في العالم المعاصر ترتبط بالعامل الحضاري ، فإنّ للعلماء والمثقفين ووسائل الإعلام أثراً كبيراً في البيئة اللُّغوية ، ففي المجال الصوتي تعد الإذاعة مثلاً من العوامل التي تؤثر بصورة كبيرة في النطق ، فالنطق الذي يرتضيه مذيعو الإذاعة يؤثر في آلاف المستمعين ، كما يؤثر المحاضرون في الجامعات في الحياة اللُّغوية من ناحية المصطلحات ، إذ تستخدم مصطلحاتهم وتشيع في الاستعمال اللُّغوي العام .[٢]

مما سبق عرضه وبيانه فإننا نرى أنّ اللُّغة ظاهرة مفتوحة لا تستقر على حال ،لأنّها كائن يتفاعل مع الظروف التي تحيط به ، وهي تتأثر بما يطرأ من تغيرات على حياة المتحدثين بها. فيا ترى ما هو حال العربية من حيث التطور الذي يُفرض عليها كلغةٍ متداولة على ألسنة ملايين البشر من عربٍ ومسلمين ؟

---

(١)ـ د/ أنيس ، المرجع نفسه ، ص ٢٢٠

(٢)ـ د/ محمود فهمي حجازي ، علم اللُّغة ، القاهرة : دار غريب ، [د. ت] ، ص٢٨

المحور الثاني :مظاهر تطور اللُّغة العربية

اللُّغة العربية كفل الله لها الحفظ بحفظه لهذا الدين قال تعالى " إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ "[١] ولولا أن شرفها الله فأنزل بها كتابه لأصبحت العربية لغة أثرية كغيرها من اللّغات القديمة ، ولسادت اللّهجات العربية المختلفة في البلاد العربية وازداد بُعدها عن أصلها على مر الزمان، وهذا الأمر يجعلنا لا نقيس اللُّغة العربية باللُّغات الحية المعاصرة ، فإنّ أقصى عمر لهذه اللُّغات لا يتعدى القرنين من الزمان، لذلك فهذه اللُّغات دائمة التطور والتغير وعرضة للتفاعل مع اللُّغات المجاورة لها، تأخذ منها وتعطي ولا تتحرج من ذلك ؛ لأنّها لم ترتبط في حياتها بكتابٍ سماوي كاللُّغة العربية ،وتعاملنا مع هذه اللُّغة يجب أن يكون من منطلق ارتباطها بالدين الإسلامي .[٢]

تجدر الإشارة إلى أنّبعض اللُّغات يقضي عليها التطور وتتلاشي عند الاتصال بلغات الأمم الأخرى ؛ إلا أنّ أيّ لغة إذا توافرت لها بعض العوامل جعلتها في مأمن من ذلك وهذه العوامل هي :

١ـ استعداد اللُّغة في أصل تركيبها وتكوينها وخصائصها الذاتية للتطور والنمو، وكذا القدرة على احتواء التغيرات الحضارية مهما اتسعت، والقدرة على الصمود أمام مختلف العوامل المؤثرة .

٢ـ قوة الأمة التي تتكلم بتلك اللُّغة حضارياً وفكرياً وسياسياً، فالأمة الضعيفة لا تمتلك الخصائص الحضارية والفكرية ولا يكون لها كيان سياسي قوي ،وبالتالي فإنّها لا تستطيع أن تحافظ على لغتها فضلاً عن أنْ تنشرها للناس .

---

(١)ـ سورة الحجر : الآية ٩

(٢)ـد/ رمضان عبد التواب ، التطور اللُّغوي ، ص ١٣

٣ـ انتشار الأمة التي تتكلم بتلك اللُّغة واتصالها بالأمم الأخرى بشتى وسائل الاتصال ، إما بالغزو، أو الفتوحات ، أو العلاقات التجارية والثقافية، أو بحركات الهجرة والنزوح .[١]

وهنا نقول إننا إذا طبقنا هذه العوامل على اللُّغة العربية نجدها جميعا تتوافر فيها بحكم تكوينها الذاتي ، وأوضح دليل على ذلك صمودها طوال هذه القرون على الرغم من تعرضها لعوامل عديدة تكفي للقضاء على أيّ لغة ، فالعربية نتيجة لقوة تكوينها الذاتي وامتلاكها لخصائص النمو صمدت في وجه جميع اللُّغات وازدادت قوةً وتماسكاً ، فبدلاً من أن تحتويها كل تلك الأمم والحضارات واللُّغات وتطغى عليها ، احتوت هي كل تلك الأمم والحضارات وطغت على سائر تلك اللُّغات .[٢]

ممالا شك فيه أن تماسك العربية وصمودها واحتفاظها بأصولها وعدم رضوخها للتطور السريع المتلاحق من أهم سمات اللُّغة العربية ، فالعربية تحتفظ بألفاظ كثيرة هي مازالت مستعملة منذ العربية البائدة بمراحلها المختلفة ،أي أنّ هنالك ألفاظاً كانت مستخدمة منذ آلاف السنين ولا يزال معظمها يستعمل حتى الآن . وقد توافر للغة العربية عاملان لم يتوافرا لغيرها من اللُّغات السامية، أحدهما أنّها نشأت في أقدم موطن للساميين ، والآخر أنّ الموقع الجغرافي لهذا الموطن ساعد على بقائها حيناً من الدهر متمتعة باستقلالها وعزلتها . وهي بفضل ذلك احتفظت بمقومات اللسان السامي الأول ، فبقي فيها من تراث هذا اللسان ما انعدم لدى أخواتها

---

(١)ـ عبد العزيز الملا ، في أصول اللُّغات ، ص ١٣٤
(٢)ـ نفسه ، ص ١٣٥

الساميات؛ فتميزت عنّها بفضل ذلك بخواص كثيرة ترجع إلى أمورٍ ثلاثة هي :

١- إنّها أكثر أخواتها احتفاظاً بالأصوات السامية ؛ بل أنّها زادت عليها أصواتاً كثيرة لا وجود لها في نظائرها الساميات مثل ، الثاء والذال والغين والضاد .

٢- إنّها أوسع أخواتها وأدقها في قواعد النحو والصرف ، فجميع القواعد التي تشتمل عليها اللُّغات السامية الأخرى توجد لها نظائر في العربية ، بينما تشتمل العربية على قواعد كثيرة لا نظير لها في غيرها .

٣- إنّها أغنى أخواتها ثروة في أصول الكلمات والمفردات ، فهي بجانب الأصول المشتركة بينها وبين أخواتها الساميات، تشتمل على أصول كثيرة احتفظت بها من اللسان السامي الأول في مختلف أنواع الكلمة " اسمها، وفعلها، وحرفها " لا يوجد لها نظير في أيٍّ من أخواتها من اللُّغات السامية الأخرى .[١]

بناءً على ذلك وإذا استقرأنا واقع اللُّغة العربية عبر العصور نستطيع أن نتلمس التطور المتزن الذي طرأ على مفرداتها على مختلف المستويات، الصوتي، والصرفي، والنحوي، والدلالي باعتبارها كائناً حياً مرناً يتفاعل مع محيطه .فالعربية أتيحت لها العديد من فرص التطور والتي تتمثل في الآتي :

١ـ احتكاك اللُّغة العربية بغيرها: تجاورت العربية ولهجاتها مع لغات ولهجات أخري، فالقبائل التي كانت تنزل بادية الشام أو العراق كانت

---

(١)د/ علي عبد الواحد وافي ، علم اللُّغة ، ص١٢٨ ، ود/ محمد أحمد حماد ، الثروة اللّفظية، الرياض : دار النشر الدولي ، ط١، ٢٤ ـ ٢٨ ص

تجاور اللُّغات الآرامية والعبرية والاحتكاك معهما أدى إلي وجود ظواهر لهجية متعددة. كما أنّ اللُّغة العربية قد صرعت العديد من اللُّغات وتغلبت عليها، حين فتح العرب جهات ومناطق متعددة، فنجدها قد تغلبت على الآرامية في العراق والشام، وعلى القبطية في مصر، وعلى البربرية في بلاد المغرب، وعلى الفارسية في بلاد فارس القديمة.[١]واحتكاك اللُّغات يعني دخول تلك اللُّغات في صراع مع بعضها وبالتالي تأثر الغالبة والمغلوبة ببعضهما ، وفي حال يكون الشعب الغالب أرقى من الشعب المغلوب في حضارته وآداب لغته ، وأشد منه بأساً وأوسع نفوذاً ، يكتب النصر للغته فتصبح لغة جميع السكان ، وهذا ما حدث مع العربية .[٢]

٢ـ تشعب اللُّغة العربية إلى لهجات: لقد تشعبت العربية إلي لهجات عديدة انتشرت في الجزيرة العربية قبل الإسلام. وقد تهيأت عدة عوامل وأسباب لتشعبها، فالبيئة الجغرافية ممتدة واسعة تختلف طبيعتها من مكان لمكان، فبعض بقاعها متصلة وبعضها منفصلة، وفيها التهائم والنجود والمسايل والوديان والصحاري التي يعيش فيها البدو، وأيضاً فيها مناطق الاستقرار والتحضر؛ حيث يوجد شيء من الزراعة والتجارة. والجزيرة العربية شهدت هجرات بشرية كثيرة، فقد هاجر بعض أهل اليمن إلي وسط الجزيرة وشرقها وشمالها، كما هاجر أهل الحجاز إلي اليمن .[٣]

---

(١)ـ د/ أحمد علم الدين الجندي ، اللهجات في التراث ،القاهرة : الدار العربية للكتاب، ١٩٩٣م ، ج١ ، ص١٢٩.

(٢)د/علي عبد الواحد وافي ، فقه اللُّغة ، القاهرة : شركة نهضة مصر ،ط٥، ٢٠٠٧م، ص ٢٣١ ـ ٢٣٢

(٣) ـ د/ أحمد علم الدين الجندي ، المرجع السابق ، ١٢٩

كما أتيح للهجات العربية القديمة أيضاً فرص كثيرة للاحتكاك فيما بينها بفضل التجارة وتبادل المنافع ، ومجاورة القبائل بعضها لبعض وتنقلها في طلب الكلأ ، وتجمعها في الحج والأسواق وغير ذلك ،فقد اشتبكت هذه اللهجات بعضها ببعض في صراع كتبت فيه الغلبة للهجة قريش، لأسبابٍ توافرت لها دون غيرها، فطغت على اللهجات الأخرى في المحادثة واستأثرت بميادين الأدب شعراً ونثراً ، فأصبح العربي أياً كانت قبيلته يستخدم لهجة قريش في شعره ونثره ، فأصبحت لهجة قريش لغة الأدب والكتابة ، ومن ثم صارت أوسع اللهجات العربية ثروةً ، وأغزرها مادة وأرقها اسلوباً ، وأدناها إلى الكمال ، وأقدرها على التعبير في مختلف فنون القول .أي أنّ النتيجة المباشرة لذلك هي التطور الملحوظ في شتى نواحي هذه اللُّغة ، فقد قويت مقوماتها وكمل ما كان بها من نقص ، كذلك انتقل لها من تلك اللهجات الكثير من المفردات والصيغ ؛ مما يبرر غزارة مفردات هذه اللُّغة وكثرة مترادفاتها وجمع الكلمة الواحدة فيها على صيغ متعددة ، وقبولها أوزاناً كثيرة للفعل الواحد . [١]

وقد أوضح لنا ابن فارس وجوه الاختلاف التي تختص بها لهجات لغة العرب والتي تتمثل في الآتي :

١ـ الاختلاف في الحركات، نحو " نستعين " بفتح النون وكسرها، فهي مفتوحة بلغة قريش وأسد، مكسورة عند غيرهم.

٢ـ الاختلاف في الحركة والسكون، مثل " هو " بضم الهاء وسكونها.

٣ـ الاختلاف في تحقيق الهمزة وتسهيلها.

٤ـ الاختلاف في الحذف والإثبات نحو " سارعوا . سارعو".

---

(١)ـ د/ أحمد علم الدين الجندي ، اللهجات في التراث ، ص٨٧، ٩١

٥ـ الاختلاف في الفتح والإمالة.
٦ـ الاختلاف في التفخيم والترقيق.
٧ـ الاختلاف في التذكير والتأنيث.
٨ـ الاختلاف في الإظهار والإدغام.
٩ـ الاختلاف في صورة الجمع نحو " أسرى وأُساري ".
١٠ـ الاختلاف في الوقف علي ما رسم بالتاء، بين التاء والهاء.[١]

مما لا شك فيه أنّ هذا التباين قد أفاد العربية من حيث تنوع الاستعمال وغزارة المفردات .

٣ـ احتكاك اللُّغة العربية بثقافات الأمم الأخرى :تحولت اللُّغة العربية بعد أن نشأت الدولة الإسلامية من لغة أدبية خالصة إلى لغة أدبية وعلمية في آنٍ واحد ، فبجانب نشأة العلوم الشرعية واللُّغوية، ظهر كثير من العلوم المترجمة من حضارات الشعوب الأخرى كاليونان والفرس والهنود وغيرهم في العصر العباسي ، وقد واجه العرب صعوبة كبيرة في نقل هذه الذخيرة العلمية الأجنبية إلى اللُّغة العربية، إلى جانب حاجتهم لوضع مصطلحات لعلومها كالنحو والفقه .الأمر الذي أدى إلى أنوجد العرب أنفسهم أمام علوم وأفكار جديدة مع توسع رقعة الدولة الإسلامية ودخول أقاليم جديدة ذات بيئات ونظم اجتماعية مختلفة ، وما تبع ذلك من دخول الكثير من الفنون وألوان المأكل والمشرب والملبس وآلات الموسيقى وغيره، فالعرب قد واجهوا الحضارة العباسية كما يواجهون اليوم الحضارة الغربية ؛

---

(١)ـأحمد ابن فارس ،الصاحبي في فقه اللغة ومسائلها وسنن العرب في كلامها ، تحقيق عمر فاروق الطباع، بيروت: مكتبة المعارف ١٩٩٣م ، ص ٥٠ ـ ٥٣

٢ـ د/ علي وافي ، فقه اللُّغة ، ص١٣٣

إلا أنّ العربية قد تغلبت على كل ذلك بكل مهارة [١].وقد خرجت العربية من هذا المعترك سليمة قوية واسعة ، حيث استطاعت أن تأخذ من كل اللُّغات التي انفتحت عليها في تلك الفترة ، كالفارسية والسريانية والرومانية وغيرها، فأصبحت تآلفيها وعلومها وأدبها نتاجاً من ثقافات تلك الأمم تتبنى أفكارهم وقرائحهم . بناءً على ذلك تضخم المعجم العربي في العصر العباسي إما عن طريق التوسع في مدلول الألفاظ العربية أو عن طريق نقل الكلمات الأعجمية نفسها إلى اللُّغة العربية ، وأكثر ذلك كان في أسماء النباتات والحيوانات والآلات والأمراض والمآكل التي لم يعرفوها من قبل، فقد تصرفوا في ذلك بطرقٍ مختلفة طوعاً للسانهم ولم يتبعوا طريقة واحدة.[٢]

تجدر الإشارة في هذا الصدد إلى أنّ العربية الفصحى قد اختبرت في التاريخ مرتين أولاهما في مدى قدرتها على استيعاب الأفكار الدينية الجديدة التي جاءت بها الشريعة الإسلامية ، فقد استوعبت العربية هذه الأفكار وعبرت عنها أدق وأبلغ تعبير . والثانية حركة الترجمة من اللُّغات الأجنبية في العصر العباسي الأول ، فالعربية لم تقصر عن تبعاتها فلم يشك أحد عن قصور الفصحى عن استيعاب الأفكار الفلسفية التي كانت لمفكري الإغريق والرومان والسريان وغيرهم [٣]

٤ـ أثر القرآن الكريم والحديث النبوي في اللُّغة العربية : مما لا شك فيه أنّ القرآن الكريم والحديث النبوي هما دعامتا الدين الإسلامي الذي اعتنقه معظم العرب ؛ مما كان سبباً في تثبيت دعائم هذه اللُّغة وتقويتها

٣ـ أحمد أمين ، ضحى الإسلام ، القاهرة : دار نهضة مصر للطباعة ، ط٧ ، [د. ت]، ج١ ، ص ٢٩١

٤ـ نفسه ،ص ٢٩٢ ، ٢٩٤

(٣)ـ د/ رمضان عبد التواب ، بحوث ومقالات في اللُّغة ، القاهرة : مكتبة الخانجي ، ط٣ ، ١٩٩٥م ، ص ١٧١ ـ ١٧٢

والنهوض بها إلى أرقى مستوى للغات من حيث الأغراض ،والمعاني ، والأساليب، والألفاظ. هذا وقد بدأت العربية بكتاب الله مرحلة جديدة ، فقد كان القرآن الروح التي جعلتها لغة كل العصور ، حيث فجّر علومها وأصبحت راسخة مبنى ومعنى قادرة على مواكبة التطور ، وقد أكسب القرآن العربية سعة في المعنى إذ أتى القرآن بمعاني لم يألفها العرب من قبل ، ومن ثم فقد سمت العربية إلى مستوى ما كان يتهيأ لها لولا القرآن ، ولم تعرف الإنسانية طول حياتها لغة خلّدها كتاب سماوي إلا العربية.[١] العربية استمرت حية أربعة عشر قرناً وستستمر إلى ما شاء الله تستمد من القرآن الكريم عنصر الحياة .[٢]

تجدر الإشارة هنا أيضاً إلى أنّ الحديث الشريف قد هذّب اللُّغة إذ سهل ألفاظها ورقق أساليبها وأذهب الحوشي منها ، كما أضاف إليها ثروة من المعاني والأساليب التي كانت تعد ابتداعاً وابتكاراً من الرسول صلى الله عليه وسلم ، مثل (حمي الوطيس)، و(مات حتف أنفه) ، و(رويدك رفقاً بالقوارير) ، و(يا خيل الله اركبي).فقد كان صلى الله عليه وسلم يصرّف اللُّغة تصريفاً ، والكفاية في تصاريف الكلام لا تكون مزاولة ومعاناة ؛ إنّما هي إلهام يهيأ له الفطرة القوية والذهن الحاد والبصر النفّاذ ، وليس في البشر قاطبة من جمع الله فيه هذه الصفات كالرسول (ﷺ).[٣]

---

(١)ـ سعيد أحمد بيومي ، أم اللُّغات ، القاهرة : دار الكتب المصرية ، ط١ ، ٢٠٠٢م ، ص٢٧

(٢)ـ د/ رمضان عبد التواب ، التطور اللُّغوي " مرجع سابق " ، ص١٤

(٣)ـ مصطفى صادق الرافعي ، تاريخ آداب العرب ، القاهرة : دار الكتاب العربي ، [د. ت]، ج٢ ، ص١٨٨، ٢١٦

هذا، وبصفةٍ عامة فإن القرآن الكريم والحديث النبوي قد فتحا للّغة العربية أبواباً كثيرة من فنون القول فعالجت أموراً لم تكن موجودة فيها من قبل ،كمسائل القوانين والتشريع والعقائد الدينية، والنظم السياسية، والاصلاح الاجتماعي، وشؤون الأسرة، وأصول القضاء والمعاملات وغيره .كما ورث العرب من الأمم التي دانت لسلطانهم الكثير من العلوم والفنون ، فاقتبسوا من لغاتهم وترجموا من مؤلفاتهم في مجال الرياضة والفلك والطبيعة والكيمياء وغيرها ، ونجم عن ذلك تطور اللُّغة وارتقاؤها من حيث المعاني والأخيلة والأساليب ؛ أما من حيث المفردات ودلالاتها فقد كان الأثر أكثر وضوحاً ، فقد تجرد كثير من الألفاظ العربية من معانيها القديمة وأصبحت تدل على معاني ترتبط بالعبادات والشعائر وإدارة شؤون الدولة ، كألفاظ الصلاة ،والصوم ،والزكاة، والحج ، والألفاظ الإدارية كالخليفة، والأمير، والوالي . وبجانب الألفاظ العربية الأصل اقتبس العرب ألفاظاً أعجمية من لغات أخرى خاصة الفارسية والسريانية واليونانية .

هذا ومن آثار الإسلام أيضاً على اللُّغة القضاء على الكثير من الألفاظ الجاهلية التي تدل على نظم حرّمها الإسلام، كالأسماء التي تدل على الأنصبة، وكذلك أسماء الأيام والشهور التي تتصل بأمور وثنية أو نظم جاهلية .[١]

وهكذا تحققت للعربية عالميتها بفضل الدين الإسلامي متمثلاً في النص القرآني والحديث النبوي ، وهذا تشريف للّغة يدل على كمالها وقدرتها على حمل المنهج الإلهي للبشر أجمعين .[٢]

---

(١)ـ د/ علي وافي ، فقه اللُّغة ، ص ٩٥ ـ ٩٦
٣ـ نفسه ، ص٣٣
(٢)ـ سعيد بيومي ، أم اللُّغات ، ص ٢٨

كل هذه الأمور السالفة تؤثر بوضوح على اللُّغة وتوجهها توجهاً مختلفاً عند كل جماعة، فينعكس ذلك تبايناً في النواحي الصوتية والدلالية وغيرها، فتتعدد بذلك طرق التطور اللُّغوي بتعدد الجماعات .[١] والعربية كما هو معلوم من أقدم اللُّغات الحية ؛ لكنّها مع هذا لم تثبت وتجمد على حال، وإنّما سايرت روح كل عصر وعبّرت عنه ، بحيث أصبحت نموذجاً للتواصل والعطاء من خلال مخزون لا ينفد ؛ آمنا يتجدد بمرور الأيام ليلائم متطلبات كل عصر ، والدليل على ذلك أنّ القارئ العربي يستطيع أن يفهم اليوم ما كتب بالعربية منذ ألف وخمسمائة عام ، في حين لا يستطيع القارئ الإنجليزي مثلاً فهم اللُّغة التي كان يكتب بها شكسبير من حوالي أربعمائة عام فقط .[٢] أما ما طرأ على اللُّغة الفصحى في العصر الحاضر من تطور فيتمثل في ما يلي :

١ـ اقتباس مفردات أفرنجية بعد تعريبها للتعبير عن المخترعات والآلات الحديثة والمصطلحات العلمية والنظريات وغيره .

٢ـ ترجمة كثير من المفردات الإفرنجية الدالة على معانٍ خاصة تتصل بمصطلحات العلوم والفلسفة والآداب، إلى مفردات عربية كانت تستعمل من قبل في معانٍ عامة ، فتجردت هذه الكلمات من معانيها العامة القديمة وأصبحت مقصورة على المدلولات الاصطلاحية .

٣ـ التأثر بأساليب اللُّغات الإفرنجية ومناهج تعبيرها .

٤ـ اقتباس كثير من أخيلة هذه اللُّغات وتشبيهاتها وحكمها وأمثالها

٥ـ إحياء الأدباء والعلماء لبعض المفردات القديمة المهجورة للتعبير عن معانٍ لا يجدون في المفردات المستعملة ما يعبر عنها تعبيراً دقيقاً ،

١ـ نفسه ، ص٥٣

وبكثرة الاستعمال بعثت هذه خلقاً جديداً وزال ما كان بها من غرابة واندمجت في التداول المألوف .[١]

هذا وقد اتضح لنا مما سبق أنّ اللُّغة كي تستمر في الوجود يجب أن تقبل التطوير، ولكي تزداد نمواً يجب أن تتصل بلغات الأمم الأخرى وتستفيد منها ، كما أنّ تعدد اللّهجات في اللغة دليل صحة ومؤشر عافية، يعكس مرونة اللُّغة ويبين ثراءها ويتيح لها فرص التطوير ، وقد استفادت العربية من هذه الأمور بشكلٍ حفظ لها شخصيتها ومكانتها بصفتها لغة آخر الكتب السماوية ، وهو تطور يناسب في الوقت ذاته طبيعتها المحافظة التي توسم بعدم التغير السريع المتلاحق ؛ كما أنّه يعكس مرونتها ومدى استعدادها للتفاعل مع غيرها من اللُّغات .إلاّ أنّه وبموازاة هذا الأمر الذي اقتضته طبيعة الانتشار الواسع للُّغة العربية ، بحكم انتشار الإسلام ودخول الكثيرين من الشعوب الأخرى في عداد الناطقين بها، يجدر بنا أن نقف عند قضية أخرى مهمة تتلازم في الغالب مع الانتشار الواسع للُّغة وزيادة عدد المتحدثين بها ،وعدم التزام هؤلاء المتحدثين بأساليب وقواعد اللّغة التي تصون الألسنة ، وهذه القضية هي قضية اللّحن اللُّغوي ؛ إذ يجب ويتحتّم علينا أنّ نميّز بين التطور الطبعي للُّغة والانحراف والخطأ اللُّغوي ، حتى نفهم الظواهر والمتغيرات اللُّغوية بصورة سليمة تمكّننا من التمييز بينها وبين الظواهر السالبة التي تعاني منها اللُّغة، حتى يتسنى لنا علاجها وفي مقدمتها اللّحن .

---

(١)ـ د/ علي وافي ، فقه اللُّغة ، ص ١١٩

المحور الثالث : اللّحن اللغوي وأثره على اللُّغة العربية

نشأت دراسة اللُّغة العربية الفصحى علاجاً لظاهرة كان يُخْشَى منها على اللُّغة وعلى القرآن الكريم، وهي ظاهرة شيوع اللّحن الذي تفشى بعد دخول الأعاجم في الإسلام . والأخطاء اللُّغوية التي شاعت على ألسنة الموالي وانتقلت عدواها لألسنة بعض العرب لم تكن مقصورة على الخطأ الإعرابي ؛ بل شملت الأخطاء الصوتية والصرفية والخطأ المعجمي الذي يبدو في اختيار كلمة أجنبية دون كلمة عربية لها المعنى نفسه ، وهي جميعها خطأ في المبنى ولو أدت في النهاية إلى خطأ في المعنى .[١]

قال الزبيدي " لم تزل العرب تنطق على سجيتها في صدر إسلامها وماضي جاهليتها ، حتى أظهر الله الإسلام على سائر الأديان ، فدخل الناس فيه أفواجاً واجتمعت الألسنة المتفرقة واللُّغات المختلفة ، ففشا الفساد في اللُّغة واستبان في الإعراب الذي يحلّيها، فعظم الإشفاق من فشو ذلك وغلبته، حتى دعاهم الحذر من ذهاب لغتهم وفساد كلامهم إلى أن سببوا الأسباب في تقييدها لمن ضاعت عليه ، فكان أول من أصّل ذلك وأعمل فكره أبو الأسود ظالم بن عمرو الدؤلي، ولم يزل الأئمة من الصحابة الراشدين ومن تلاهم من التابعين يحضون على تعلم العربية وحفظها والرعاية لمعانيها."[٢]

فاللّحن هو مخالفة العربية الفصحى في الأصوات ، أو الصيغ ، أو في تركيب الجملة وحركات الإعراب ، أو في دلالة الألفاظ ، وقد عرفت

---

(١)ـ د/ تمام حسان ، العربية معناها ومبناها ، القاهرة : عالم الكتب ، ط٥ ، ٢٠٠٦م ، ص١٢

(٢)ـ محمد بن الحسن بن عبيد الله الزبيدي ، طبقات النحويين ، القاهرة : دار المعارف ، [د. ت] ، ص١١ـ ١٢

كلمة اللّحن بمعنى الخطأ في الكلام في بداية العصر الأموي .[١] ويعتبر القرن الرابع الهجري نهاية عصر الاحتجاج اللّغوي ، حيث فشا اللحن بين اللُّغويين والمتعلمين يقول ابن فارس:" وقد كان الناس قديماً يجتنبون اللّحن فيما يكتسبونه أو يقرؤونه اجتنابهم بعض الذنوب والمحارم ، أما الآن فقد تجاوز حتى أنّ المتحدث يتحدث فيلحن ، والفقيه يؤلف فيلحن ، فإذا تُبعا قالا ما ندري الإعراب وإنّما نحن محدثون فقهاء ، أي أنّ اللّحن لم يقف عند العامة ،بل تجاوزهم إلى كتاب الدواوين ."[٢]

هذا وقد تميز لسان العرب بالإعراب لا يشاركه في ذلك لسان ، وظل العرب يتناقلون لغتهم بالسليقة بلا تكلف أو معالجة ، ولما نزل القرآن بهذا اللسان ارتبط بالدين ارتباطاً تاماً، فبالعربية يدخل الإنسان في الدين ، يؤدي بها جميع شعائره ، فكان من دخل الإسلام يبادر إلى تعلم العربية حتى يفهم تعاليم الدين ، وفي الغالب هذا المتعرّب الجديد لا يستطيع التخلص من آثار لغته الأصلية ، فيختلط عنده القديم بالجديد ومن هنا ظهر اللّحن بسبب اختلاط العرب بغيرهم من الشعوب، وأول ما ظهر فيه اللّحن هو الإعراب .والإعراب كان من الأمور التي تساعد على حرية بناء الجملة العربية ، ولهذا كانت الجملة تقرأ بعدة أوجه فلما فُقد الإعراب كان ينبغي أن يلزم بناء الجملة شكلاً واحداً، والجملة إن خلت من الإعراب احتملت معاني عدة ، فإن

---

(١)ـ د/ رمضان عبد التواب ، لحن العامة والتطور اللُّغوي ، القاهرة : مكتبة زهراء الشرق ،ط٢ ، ٢٠٠٠م ، ص١٣ ـ ١٤

(٢)ـ أحمد بن فارس ، مقاييس اللُّغة ، بيروت : دار الجيل ،ط١ ، ١٩٩١م مادة " لحن "

أعربت نصت على معنى واحد.[١]واللّحن ظاهرة اجتماعية سلكت طريقها للألسنة بسبب عوامل عدة هي :

١ـ اختلاط العرب بغيرهم من الأجناس : أسهم اختلاط العرب بالأعاجم في تأثر العربية بعجمة هؤلاء الأعاجم ، فبدأ اللّحن يفسد لسان العرب في عقر دارهم.

٢ـ اشتغال غير العرب من العجم والموالي بالعلم: اشتغل العرب الفاتحون بالسياسة وإدارة الدولة عن العلم وطلبه ، فتولى ذلك العجم والموالي.

٣ـ إهمال النقط والشكل في اللُّغة العربية، كانت سليقة العرب وسلامة لغتهم تغنيانهم عن نقط الحروف وشكلها ، وحين دخلت الأمم الجديدة وبدأ الفساد يدب في اللُّغة خافوا عليها من الاندثار فوضعوا النقط والشكل.

٤ـ أصل وضع اللُّغة ، طبيعة الحرف العربي توقع في التصحيف الذي هو أحد أنواع اللّحن ، وذلك لأنّ مجموعة من الحروف لها صورة واحدة مثل " الباء ـ التاء ـ الثاء ـ النون " فكان ينبغي وضع لكل حرف صورة مباينة للأخرى .

٥ـ الاختلاف في وضع الحروف من جيلٍ إلى جيل ومن شعب إلى شعب ،كصعوبة نطق الحاء والعين عند غير العربي مثلا.

٦ـ إهمال أولياء الأمور تصحيح أخطاء الأطفال اللُّغوية مبكراً .

---

(١)ـد/ رمضان عبد التواب ، فصول في فقه العربية " مرجع سابق "، ص ٢٥٦

٧ـاتخاذ المربيات من غير العرب وعدم مراقبة أولياء الأمور لبنيهم في طور التنشئة .

٨ـ هيمنة اللهجات العامية تلعب دوراً أساسياً في مجتمعاتنا في العبث بالفصحى ؛حيث أصبحت الفصحى غريبة في مجالسنا اليوم .[١]

نستخلص مما سبق أنّ اللُّغة العربية كما علمنا أنّها بطبيعتها لغة غير جامدة قابلة للتطور والتعايش مع اللُّغات الأخرى ؛ مما ساعد على دخول اللّحن إليها باكراً ،واستمراره طيلة الخلافة الراشدة وازدياد خطره في العصر الأموي على الرغم من محاولة الأمويين المحافظة على كل ما يتصل بالعرب من أمور ، وفي ظل هذه النظرة بدأ الاهتمام باللُّغة العربية وتخليصها من شوائب اللّحن ؛ إلا أنّ اختلاط العرب المتزايد بالأجانب حال دون ذلك ، إذ لم يكن من الممكن إقامة حاجز بين العرب الفاتحين وغيرهم من الأمم المغلوبة ، وازداد الأمر سوءاً في العصر العباسي بانفتاح العرب على الأمم المجاورة خاصة الفرس ؛ بل أنّ بعض العرب تعلم الفارسية فظهرت لغة هجين ، لا هي عربية خالصة ولا أعجمية خالصة ، وهذه اللُّغة هي التي هددت العربية ،لأنّها استعانت بأبسط وسائل التعبير اللُّغوي ، فبسّطت المحصول الصوتي ، وصوغ القوالب اللُّغوية ، ونظام تركيب الجملة . وهذه الأمور هي التي أطلق عليها الفصحاء اسم " اللّحن" الذي ينقسم إلى ثلاثة أنواع : لحن في مخارج الحروف، ولحن في تركيب الجمل ، ولحن في الإعراب .[٢]

---

(١)ـ محمد عبد الله بن التمين ، اللحن وآثاره في الفقه واللُّغة ، دبي : دائرة الشؤون الإسلامية والخيرية ، ط٢ ،٢٠١٢م ، ٤٤ ـ ٥٠

(٢)ـ د/ حسين نصّار ، المعجم العربي ، القاهرة : دار مصر للطباعة ، ط٤ ، ١٩٨٨م ، ج١ ، ص ١٨ ـ ١٩

وفي العصر الحاضر عمت الفوضى في العربية وتعددت الأخطاء الشائعة والدخيل والمعرّب من غير ضرورة وبلا شرط ، ومن تلك الأخطاء ما لا يقبله اللسان العربي الفصيح ولا السليقة العربية السليمة . والأخطاء الشائعة هي استخدام ألفاظ أو تراكيب معيّنة نطقاً أو كتابةً أو إعراباً في غير ما وضعت له ؛ وهي غالباً ناتجة عن قصور في فهم قواعد النحو مثل قولهم " إنهم قادمين ، والصواب " قادمون " ، أو الإملاء مثل كتابتهم "ثقات" بالتاء المربوطة والصواب " ثقات " ، أو الصرف كتحريف بعض الأبنية الصرفية كقولهم "الراسل " والصواب " المرسل ، أو الأخطاء في تركيب الجمل . ومن الأخطاء ما يسمى بالابتذال وهو استخدام التعابير والكلمات العامية مكان الفصحى مثل استعمال كلمة " الشوربا " بدلاً عن "الحساء " و " احتار " بدلاً عن " حار " ، ومنها أيضاً التكرار في غير موضعه مثل قولهم " في أثناء خلال الحديث " ، ومنها ما يسمى بالإطناب الممقوت مثل قولهم " هذا جبلٌ كبيرٌ ضخمٌ عظيمُ الهيكل " ، ومن الأخطاء أيضاً تبديل أصوات الهجاء ، كنطق " الضاد " " ظاء " مثل " أتوظأ " بدلاً عن " أتوضأ ".[١]

وقد بدأ الاهتمام بتأليف الكتب اللّغوية الهادفة إلى تعليم الفصحى والابتعاد عن التأثيرات العامية في الاستخدام اللُّغوي في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري ، فسجل العلماء بعض ظواهر اللهجات لبيان خطئها وأشاروا إلى ما ينبغي أن يقال بدلاً عنها في الفصحى .[٢]وقد تصدى العلماء لظاهرة اللّحن في العصور الأولى بكل حزم وقوة ، وذلك عن طريق

---

(١)ـ د/ عبد الفتّاح فرح ضوء ، المهارات اللُّغوية ، الرياض : مكتبة الرشد ، ط١ ، ٢٠٠٩ م ، ص ١٨٧ ـ ١٨٨

(٢)ـ د/ محمود حجازي ، علم اللُّغة " مرجع سابق " ، ص١١٥

صد الدخيل وتصحيح الخطأ ، وبحفظ الموجود نقياً وبحصر ما وقع من لحن وقد أثمرت الجهود بما يلي :

١ـ نقط القرآن وشكله .

٢ـ استنباط قواعد لحفظ اللسان من الخطأ .

٣ـ جمع مفردات اللُّغة وحصرها في المعاجم .

٤ـ احتواء ظاهرة اللّحن بجمع ما وقع فيه من الكلمات والتراكيب في مؤلفات خاصة .[١]

(١)ـ محمد بن عبدالله التمين ، اللّحن وآثاره ، ص١٠٩

هذا، وينبغي لكل من يحاول إصلاحاً لغوياً أن يعمد قبل كل شيء إلى دراسة حياة اللُّغة ومناهج تطورها وما تخضع له في حياتها من قوانين ، حتى يتميز له الممكن من المستحيل ، وحتى تكون إصلاحاته مسايرة لطبيعة هذه اللُّغة فتؤتي أكلها.[١] والعربية لها ظروف خاصة لم تتوافر لأيّ لغة من لغات العالم ، وهذا يجعلنا نرفض ما ينادي به البعض من ترك الحبل على الغارب للعربية لكي تتفاعل مع العاميات ، تأخذ منها وتعطي كما يحدث في كل اللُّغات .[٢]

هذا بصفةٍ عامة ولكي نقوم بواجبنا تجاه لغتنا العربية، فإنّه ينبغي علينا أن نفهم خصائصها وطبيعة ومراحل تطورها عبر العصور فهماً صحيحاً ، حتى نتمكن من التمييز بين ما هو تطور وما هو انحراف وزلل لغوي تجب محاربته؛ خاصة في ما يتعلق باللّهجات المحلية في مجتمعاتنا العربية، لأنّ كل لهْجة تمثل نظاماً لغوياً له مميزاته الخاصة ، والتي قد تزيل اللبس عن الكثير من الألفاظ المستخدمة اليوم ، هل هي عربية أو دخيلة ، أوهي لحن وخطأ لغوي ؟فالمحافظة على سلامة اللُّغة وإعلاء شأنها أمر غاية في الأهمية في هذا العصر الذي تشتكي فيه العربية من أهلها قبل غيرهم ؛ وذلك لأنّ الكثير من العرب اليوم يستصعبون العربية وضوابطها ويشكّون في قدرتها على تلبية متطلبات العصر ومواكبة الحداثة ، فلا يتحرجون منعدم الالتزام بنظمها وقواعدها، أو استخدام العاميات بدلاً عنها، أو استبدالها بلغة قومٍ آخرين كالإنجليزية وغيرها .

---

(١)ـ د/ علي عبد الواحد وافي ،اللَّغة والمجتمع ، المملكة العربية السعودية : مكتبة عكاظ ، ط٤ ، ١٩٨٣م ، ص١٤٣

(٢)ـ د/ رمضان عبد التواب ، التطور اللُّغوي ، ص ١٢

الخاتمة:

تشتمل على النتائج والتوصيات الآتية :

أولاً النتائج:

١ـ اللُّغة دائمة التطور مهما أحيطت بسياج من الحرص ،لأنّها كائن حي يتفاعل مع الظروف التي تحيط به .

٢ـ عناصر اللُّغة ليست كلها على سواء في سرعة قبول التطور ، فالتطور في جانب المفردات أسرع وأوضح منه في جانب الصوتيات والصرفيات.

٣ـ التطور اللُّغوي يحدث بصورة مطّردة وفقاً لقواعد ثابتة يمكن أن تصاغ في شكل قوانين دقيقة .

٤ـ هناك العديد من العوامل التي تساعد على تطور اللُّغات الحية ، وقد تهيأ للعربية عدد من هذه العوامل التي ساعدت على تطورها عبر العصور .

٥ـ المحافظة وعدم التطور السريع من أهم سمات اللُّغة العربية .

٦ـ العربية بحكم تكوينها الذاتي احتفظت بقوتها وتماسكها وصمدت في وجه لغات الأمم التي احتكت بها .

٧ـ ارتباط العربية بالقرآن الكريم أكسبها وضعاً مميّزاً دون سائر اللُّغات الحية .

٨ـ تفشى اللّحن في اللُّغة العربية بعد دخول الأعاجم في الإسلام وازدادت نبرته على مر العصور حتى استفحل أمره في العصر الحديث .

٩ـ اللّحن الإعرابي هو أول أنواع اللّحن التي ظهرت بين المتحدثين بالعربية.

١٠ـ هيمنة اللّهجات العامية في العصر الحاضر وعدم مراقبة أولياء الأمور لأبنائهم في طور التنشئة ساهم في انتشار اللّحن والعبث بالفصحى .

١١ـ التطور اللُّغوي مظهر تغير طبيعي أما اللحن فهو مظهر تغير سلبي ينبغي العمل الدائم لمتابعته واصلاحه .

ثانياً التوصيات:

ا. ضرورة قيام الهيئات المعنية بشأن اللُّغة العربية ، وفي مقدمتها المجامع اللُّغوية بدورها المنوط بها في محاربة الظواهر السالبة التي تعاني منها لغتنا الحبيبة .

٢ـ إعادة النظر في مناهج وطرق تدريس اللُّغة العربية في المؤسسات التعليمية .

٣ـ وضع خط فاصل واضح بين مظاهر التطور الطبيعي للغتنا ومظاهر اللّحن اللُّغوي ، حتى نتمكن من مواصلة جهود أسلافنا في محاربة هذه الظاهرة الهدّامة .

٤ـ بذل الجهود للحد من التأثير السالب للعاميات ومظاهر العولمة على لغتنا الفصحى .

٥ـ ضرورة الاهتمام بدراسة اللّهجات العربية الحديثة وخصائصها حتى نتمكن من الفصل بينها وبين اللّحن اللُّغوي .

قائمة المصادر والمراجع :

١ــ د/إبراهيم أنيس ، الأصوات اللُّغوية ، القاهرة : مطبعة الأنجلو ، ط٣، ٢٠٠٧م .

٢ـ أحمد أمين ، ضحى الإسلام ، القاهرة : دار نهضة مصر للطباعة ، ط٧،[د .ت].

٣ـ د/ أحمد علم الدين الجندي ، اللّهجات العربية في التراث ، القاهرة : الدار العربية للكتاب ، ١٩٩٣م.

٤ــ أحمد بن فارس ، الصاحبي في فقه اللُّغة ومسائلها وسنن العرب في كلامها، تحقيق عمر فاروق الطبّاع ، بيروت : مكتبة المعارف ، ط١٩٩٣م .

ــ أحمد بن فارس ، مقاييس اللُّغة ، بيروت : دار الجيل ، ط١، ١٩٩١م .

٥ـ د/ تمّام حسان ،العربية معناها ومبناها ، القاهرة : عالم الكتب ، ط٥ ، ٢٠٠٦م .

٦ـ جوزيف فندريس ، اللُّغة ، تحقيق عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص ،القاهرة: مكتبة الأنجلو ، ط١٩٥٠م.

٧ـ د/ حسين نصّار ، المعجم العربي ، القاهرة : دار مصر للطباعة ، ط٤ ، ١٩٨٨م

٨ـ د/ رمضان عبد التواب ، بحوث ومقالات في اللُّغة ، القاهرة : مكتبة الخانجي ، ط٣، ١٩٩٥م .

د/ رمضان عبد التواب ،التطور اللُّغوي مظاهره علله وقوانينه ، القاهرة : مكتبة الخانجي، ط٢ ،١٩٩٠م .

د/ رمضان عبد التواب ، فصول في فقه العربية ، الدمام : مكتبة المتنبي ، ط١٤٣٣هـ..

٩ــ سعيد أحمد بيومي ، أم اللُّغات ، القاهرة : دار الكتب المصرية ،ط١ ، ٢٠٠٢م .

١٠ــ د/ عبد الصبور شاهين ، في التطور اللُّغوي ، القاهرة : دار الرسالة ، ط٢، ١٩٨٥م .

١١ـ عبد العزيز عبد الفتاح الملاّ، دراسات في أصول اللّغات العربية ، المدينة المنورة: الجامعة الإسلامية ، ط٤، ١٩٧٤م .

١٢ـ د/ عبد الفتّاح فرح ضو : المهارات اللُّغوية ، الرياض : مكتبة الرشد ، ط١ ، ٢٠٠٩م.

١٣ـ د/ علي عبد الواحد وافي ، علم اللُّغة ،القاهرة : شركة نهضة مصر، ط١٥، ٢٠١٣م .

د/ علي عبد الواحد وافي ، فقه اللُّغة ، القاهرة : شركة نهضة مصر، ط٥، ٢٠٠٧ م .

د/ علي عبد الواحد وافي ، اللُّغة والمجتمع ، المملكة العربية السعودية : مكتبة عكاظ ، ط٤ ، ١٩٨٣م

١٤ـ د/ محمد أحمد حمّاد، الثروة اللّفظية، الرياض:دار النشر الدولي، ط١.

١٥ـ محمد بن الحسن بن عبد الله الزبيدي ، طبقات النحويين ، القاهرة : دار المعارف ،[د. ت]

١٦ـ محمد بن عبد الله التمين ، اللّحن وآثاره في الفقه واللُّغة ، دبيّ : دائرة الشؤون الإسلامية والخيرية ، ط٢ ، ٢٠١٢م.

١٧ـ د/ محمود فهمي حجازي ، علم اللُّغة ، القاهرة : دار غريب ، [د.ت].

١٨ـ مصطفى صادق الرافعي ، تاريخ آداب العرب ، القاهرة : دار الكتاب العربي ، [د. ت] .